

عن إنسانيتنا المهدورة

بيار أبي صعب

ليس ماهر أبي سمرا أول من يطرح، على الشاشة، قضية عاملات المنازل في لبنان. هناك أفلام مهمة فتحت الطريق، نشير بينها إلى «الخدمات في لبنان» (Maid in Lebanon) لكارول منصور بجزءيه (2007 ثم 2011)، و«خدمات للبيع» لديما الجندي (2008). لكن الزاوية السينمائية والسياسية التي اختارها صاحب «شيوعين كئياً» (2010) لتناول مسألة العبودية في وطن العسل والبخور، تصنع فرادة شريطه الجديد «مخدومين» الذي يعرض حالياً في بيروت. فيلم خاص وحميم كما هي كل أفلام ماهر أبي سمرا التي يحتل فيها ضمير المتكلم مكاناً محورياً من العمل الإبداعي. فـ «أنا» السينمائي الشاهد، الحامل معيوشه ونظرتة الجدلية وأسئلته، والذي يروي ويعلق بصوته غالباً في الفيلم، هي أساس تجربته النقدية التي تقيم علاقة وطيدة، أساسية، بين التجربة الذاتية من جهة، والقضايا الإنسانية والاجتماعية والسياسية الكبرى من جهة ثانية.

كارول منصور ذهبت الى سريلانكا لتصوّر تجارب «الخدمات» وآليات استغلالهن. ومثلها فعلت ديما الجندي التي التقطت الشهادات وحالات الانسحاق والمعاناة اليومية اللا-إنسانية، بلغة تفرضها منهجية الفيلم الوثائقي. أما ماهر أبي سمرا، فبقي في بيروت ليصوّر الخواء، بكاميرا ثابتة ولغة متقشفة. زرع كاميراه في مكتب «الوسيط» أو «المستورد»، ليفكك ميكانيسمات عبودية عادية لا نريد أن نراها، مع انها تحاصرنا، الباقي في الفيلم يقوم على شعريّة الغياب: كادرات فارغة لحيوات لا نراها، وظلال من خلف النوافذ، وواجهات بنايات وشقق مضاءة ليلاً في مدينة الشقاء العادي. الضحية لا تظهر على الشاشة أبداً، فهي مجردة، مدفونة في وعينا الشقي مع وجوه «السيرلانكييات» و«الحبشييات» و«الفلبينيات»... اللواتي يحاصرن حياتنا اليومية. «الخدمة» مستترة على الشاشة، لا نرى إلا طيفها العابر، كما «الهامة» الشهيرة عند العرب القدماء. نتفرّج على زنزانها الرمزية، فراشها، بصمات تعبها وغربتها. نتلمّس صمتها، نسترق السمع الى صراخها المكبوت. نرصد قهرها، ضياعها، عجزها عن التعبير، استسلامها، توقها الخافت للإفلات من فخ عظيم أطبق عليها بعدما تساقطت وعود وردية قطعها تاجر رقيق في المقلب الآخر من العالم.

إن خطاب «مخدومين» هو خطاب القسوة الباردة، الطالعة من سرد بطيء لحكايات في منتهى الرتابة، تجسّد الاستغلال في ظل أنماط إنتاج طفيلية. لذلك، لا تحوم الكاميرا كالغراب حول الضحية، متاجرة بالشفقة واللوعة والأنين، وما إلى ذلك من توابل العظة «الإنسانية» المعهودة. بل تجعلنا نتأمل المسألة في مرآة «الجلاد» التي ترمي بوجهنا بشاعتنا. هنا تكمن إضافة ماهر أبي سمرا، وخطابه الاتهامي الذي يفصح انحطاطنا وبؤسنا. لقد صنع فيلماً عن وهم الارتقاء الطبقي لدى فئات اجتماعية مسحوقة في النهاية، تستعيد من هو أضعف وأفقر منها. هكذا نتعرّف إلى معاناة «الخدمة»، عبر نظرة «الأسياء» وتوصيفهم ومفرداتهم ولغتهم وحاجاتهم، والمشاكل التي يتخبّطون بها مع «ماكينات بشرية» معطلة أو غير مطابقة. «المعلمة» هي التي تحكي عن «الصناعة» كأنها مسرحية جان جينيه (الخدمتان) معكوسة. ماهر أبي سمرا يروي مأساة الرقيق المعاصر، من وجهة نظر مستغليه وتجاره وأسياده. ولعل نروى الفيلم هي ذلك المشهد العبثي، حيث الوسيط الودود يرسم لنا، ببساطة ودقّة، الخرائط والجدول على واجهة مكتبه الزجاجية الشاسعة، لنفهم مصدر البضاعة، وأصنافها، وأسعارها، وكمياتها في الأسواق، وآليات الترانزيت، وكلفة الاستيراد...

فيلم «مخدومين» عن «عبدات» الأزمنة الحديثة، من وجهة نظر السجان والجلاد وتاجر الرقيق، في بلد يدعي الحضارة والرقّي، حتى أن أرباب عمل المخدومين يشعرون بالحرَج من تناول الموضوع أمام الكاميرا. لكنّه أيضاً فيلم عن بشر عاديين تأهين، عالقين في الفخّ الطبقي. يقف ماهر أبي سمرا في مكان غير بعيد عن «جدلية السيد والعبد» حسب هيجل، ليصوّر إنسانيتنا المهدورة في مجتمع يتفكك تحت وطأة أنماط الإنتاج الطفيلية. وليروي على طريقته، قصّة الجلاد الذي أصبح ضحية جريمته، والسيد الذي بات عبداً لعبده، قل لي ممّ تهرب...

سينما

فيلمه «مخدومين» يعرض في بيروت ماهر أبي سمرا يصوّر بؤسنا



برناديت حديب في مشهد من «مخدومين»

علي وجيه

للوهلة الأولى، يبدو جديد ماهر أبي سمرا «مخدومين» (2016 - 67 د. «جائزة السلام» في «برليناله 2016»، وأفضل فيلم غير روائي في «مهرجان دبي السينمائي الدولي» 2016) انتقالاً من السياسي إلى الاجتماعي، في فيلموغرافيا السينمائي اللبناني (1965)، بتناوله ملف الخدمات الأجنبية في بلده، بعد عدد من الوثائقيات السجالية. صحيح أن ابن شعبة الجنوبية، درس في المعهد الوطني للصورة والصوت في باريس، بعد الفنون المسرحية في الجامعة اللبنانية، إلا أنه لم يصنع أفلاماً عن المهاجرين (التيمة المفضلة لدى الدارسين العرب في أوروبا)، رغم عمله كمساعد مخرج ومصوّر في بعضها. فضل الاشتغال في وطنه وعنه، «عوارض عودة» (1995)، و«إعمار على الموج» (1995) (مع أدو بنكاري، وجيروم الأمارغو، وجمانة بعلبكي)، و«نساء حزب الله» (2000)، و«دوّار شاتيل» (2004)، و«مجردة راتحة» (2007 - أفضل وثائقي قصير في مهرجان DOK لايبزيغ 2007، ومهرجان It's All True الدولي للأفلام الوثائقية في البرازيل 2008)، و«شيوعين كئياً» (2010 - «اللؤلؤة السوداء» لأفضل وثائقي عربي في «مهرجان أبوظبي السينمائي») عناوين حساسة، متفوّقة، محمولة على الكنف والهواجس الملحة (زعماء الحرب الأهلية الذين سقموا الهواء وحكموا البلد، بؤس مخيمات اللجوء، تفكيك الطوائف، معاينة أضرار حرب تموز، الشيوعيون المهزومون...). خرج بعضها من بيئة أبي سمرا الزاخرة بالأسئلة والتحولات (القرية، ثم الضاحية في بيروت). بعضها الآخر صدر عن موقعه الحزبي الشيوعي سابقاً، وخياراته الملتبسة، وماضيه المنسول من تاريخ دولة وحرب. النموذج ينسحب على كامل الجغرافيا بتلونات مغايرة. الخاص يقود إلى العام، والسينمائي إلى السياسي، وبالعكس.

هكذا، يمكن وضع اليد على مكن الذكاء والخبث في «مخدومين»، الذي يقارب «العقد الاجتماعي اللبناني» متسللاً عبر الباب الخلفي. أكثر من 200 ألف عاملة، في مكان لا يتجاوز مجموع سكانه 5 ملايين نسمة. مفارقة مضحكة في دولة غارقة بالديون والكوارث الأزلية. سايكولوجيا مجتمع يمجّد المظاهر على حساب أساسيات غائبة. نظام

عبودية محكم، يحيل على سلسلة افتراس كاملة، الخدمة رهيبة عند «أسياد». هؤلاء عبيد بدورهم لنظام استهلاكي بزاق من الخارج، مهترئ من أساسه. توسيع المروحة يحيل على مستنقعات أكبر. نظام طائفي عنصري. لا عدالة اجتماعية. تواطؤ الجميع، بما في ذلك القانون والشرطة. أذعاء التعاطف من قبل البعض، ليس أكثر من رد فعل أني على انتحار عاملة أو تعرضها للضرب. لنملاً وقت الفراغ بهواية الاكترتات، كما لو أننا نفعل عن سابق إصرار. «إستابلشمنت» مشرّوخ يتنازع الموارد والامتيازات والولاءات الآنية الضيقة. يختلف على كل ما يتعلق بالسير الجمعي نحو المستقبل. الاتفاق الوحيد هو الاستقواء على المستضعفين (الخدمات)، وتفريغ عقد النقص والتحقيق فيهم. أليست هذه عقلية المنطقة كلها؟ السوسولوجي يأخذنا إلى مظاهر / أمراض مماثلة، مع اختلاف الحلقة الأضعف في كل جغرافيا.

نظام عبودية محكم حيث العاملة رهيبة عند «أسياد»، وهؤلاء عبيد بدورهم للاستهلاك والمظاهر

المسحوقون في مصر. أمحاء الطليقة الوسطى في سوريا، مع تفشي ثنائية أمراء الحرب (مسؤولون، زعران، مجرمون...) / ضحايا. مبدعو مواويل الحزن في العراق. المخفولون والمهددون بالترحيل وعشال ملاعب كرة القدم في بعض دول الخليج. منشطات السياحة الجنسية في المغرب. المشترك الإنساني هو البؤس المتفشي، والفساد الذي ينخر كل شيء. قد لا يكون كل ذلك ماثلاً في ذهن ماهر أبي سمرا عند التنفيذ، ولكنه حاضر في طبقات الشريط وشيطان إحالاته. بالعودة إلى الفيلم نفسه. الوسيط المناسب هو «زين»، صاحب وكالة استخدام للعمالة من آسيا وأفريقيا. يساعد زبائنه في اختيار الخدمة الملائمة، ضمن كتالوغ أعدّه لهذا الغرض. تحط كاميرا أبي سمرا في مكتب السمسمار، لتتحوّل إلى جزء منه. تسجّل طبيعة عمله وأسلوبه. من ناحيته، لا يبخل الرجل في الشرح والإيضاح. يسرد كل شيء عن المهنة. يبدأ بالتطور التاريخي، وصولاً إلى طرق جلب العاملات

وتكاليهفن، ومروراً بمشاكلهن ووسائل التعامل معهن، أو بالأحرى ضمان استيعادهن بالشكل الأمثل. عالم مرّوع، يُحسب لماهر أنّه أول من يفتح أبواب جحيمة في السينما بهذا الشكل. نتذكر المرور عليه في ريبورتاجات تلفزيونية، وبرامج «توك شو»، وخطوط فرعية في بعض الأفلام. مشكلة الشريط في المعادل البصري، الاستعراض الأفقي والعامودي الثقيل لطوابق سكنية (تصوير كليز ماتون)، ترافقاً مع تعليق المخرج الهادئ، لا ينتشل الفيلم من شبخ المونوتون (توليف رنا صباغة وروين كورنفلد). طبعاً، لا بدّ من التنويه بجماليته وقوة تأثيره. الالتصاق بالمكثب يضيف صبغة تقريرية على بعض فواصل الفيلم. الأدهى أن بوح الممثلة برناديت حديب حول طفولتها، وبدهية وجود العاملة، وتشكيلات الافتتاح، جاءت كمشهديات مبتورة. خلال مرحلة التمويل، تحدّث لمخص «مخدومين» («كل واحد وخدمتو» كعنوان مبدئي) عن الممثلة «ريما» التي تلعب دور خادمة في عرض مسرحي، ولديها عاملة سريلانكية في البيت، ما يضعها وجهاً لوجه أمام الواقع. ذكر الخادمة «لاتي» التي تشعر بالاستياء والغضب على الدوام. في الفيلم، حصل تغيير في زاوية الرؤية. لم تظهر أيّ عاملة، لتعزّيز معنى التسليع والتهميش، وعدم جرح أيّ منهنّ. ذلك أنّ ماهر أبي سمرا يعمل بأسلوب «اللا صدمة» على الدوام. يستعمل التحريض الجوّاني على الاستماع وتدوير المخ. يحافظ على مسافة أمان وتقدير، وأحياناً تعاطف، مع الموضوع أو الشخص، بغض النظر عن رأيه النقدي تجاهه. ليس مستغرباً الحديث عن الضحية طوال الوقت، من دون عرضها مباشرة. في المقابل، يبقى عدم الاشتغال على مستوى الممثلة والمسرح محل تساؤل. نكاد نشهق بحسرة: «ليته تابع هنا»، ليحقق موازياً بصرياً وفكرياً دسماً (حاول فعل ذلك من خلال تعليقه). بيد أنّ «مخدومين» بيان قاس عن قضية إنسان، وعدالة مفقودة. مبضع تشريح لمنطقة منهتكة، مافيوية التركيب. كلام هادئ في وجه تحالف من الطرشان. خطاب عقل وسط حفل من الجنون والسعار.

* «مخدومين»: حتى 22 شباط (فبراير) - «متروبوليس أمبير صوفيل» (الأشرفية). للاستعلام: 01/204080